ثمانية أعوام على ربيع اليمن.. من كان القائد؟

من بين المشاهد التي لا تزال حاضرة بقوة في الذهن بعد مرور ثمانية أعوام على اندلاع ثورة الحادي عشر من شباط/ فبراير 2011 في اليمن، مشهد الشابة اليمنية توكل كرمان، وهي تهتف بسقوط النظام وتطلق الشعارات تلو الشعارات من على منصة ساحة التغيير بصنعاء، أو أثناء المسيرات الطويلة التي كانت تجوب شوارع العاصمة، وعشرات آلاف من الثائرين يرددون معها ذات الشعارات.

ليس من السهل أبداً أن يحدث ذلك في مجتمع تقليدي، لا يقر بقيادة المرأة وبجدارتها في تبوؤ المسؤولية في جهاز الدولة والقضاء، ناهيك عن تمكينها من احتلال موقع قيادة وتوجيه الوعي والمشاعر في ثورة ينصرف معها الذهن دائماً إلى الرجال دون سواهم. ولكن ذلك حدث، وعبّر عن الأثر العميق الذي أحدثه الربيع العربي في المجتمع والناس.

في الحقيقة، لم تصعد توكل كرمان إلى مشهد الثورة بشكل مفاجئ، ولم تملأ هذا المشهد بذلك القدر من العنفوان والكاريزما والتأثير، بشكل مفاجئ أيضاً، فلقد سبق لها أن أرست تقاليد الاحتجاج المدني خلال الأعوام التي سبقت الربيع العربي.

كانت توكل كرمان خلا تلك الفترة لا تتوقف عن تنظيم الوقفات الاحتجاجية، حتى باتت الوجه المعبر عن المتعبين والمقهورين، بما تمتعت به من شجاعة وإقدام ومثابرة في مواجهة التضييق والاستهداف اللذين كانت تتعرض لهما من قبل نظام علي عبد الله صالح.

جميع الحقوق محفوظة لموقع ايماسك - مركز الإمارات للدرسات والإعلام

تعددت مسارات التأثير التي سلكتها توكل كرمان قبل عام 2011، بين الحقوقي والسياسي، والإعلامي، على نحو رسخ صورتها في أذهان النخبة باعتبارها الفتاة الشجاعة التي لا تلين لها قناة، وسرعان ما تحول ذلك إلى تقدير عالمي، مكّنها من أن تكون بين ست نساء تم اختيارهن من قبل وزارة الخارجية الأمريكية.

ما أريد قوله هنا هو أن ثورة الحادي عشر من شباط/ فبراير 2011 في اليمن، لم تكن تفتقد إلى القائد، فقد كانت توكل النموذج المثالي للقائد الميداني الأوسع تأثيراً، ففي خيمتها بساحة التغيير.. كانت تُصاغ أجندة التحركات الميدانية، رغم وجود منسقية عليا للثورة، تتحكم بها أحزاب اللقاء المشترك، وفي طليعتها التجمع اليمني للإصلاح، مع الإقرار بأن هذه الأحزاب لعبت دوراً أساسياً في تأمين الحضور الجماهيري الواسع، وضمان استقرار الآلاف في الساحات تحت ظروف شديدة الصعوبة.

ولست هنا بحاجة إلى القول إن توكل كرمان تقاسمت مسؤولية قيادة الثورة مع المنسقية التي تهيمن عليها أحزاب المعارضة، فالأمر لم يكن كذلك على وجه التحديد، بقدر ما تجلّى في التأثير الذي مارسه الطرفان عبر الخطاب والكاريزما والمنابر. والأصح أن توكل تكاملت في دورها مع المنسقية وافترقت وانسجمت وتناقضت معها، وبقيت صاحبة خطاب مستقل ومؤثر، تستحق معه أن يقر لها الجميع بأنها كانت ملهمة الربيع اليمني ومحركه وأيقونته.

لقد تكررت في الخطاب الإعلامي الادعاءات نفسها بشأن غياب القائد في ثورات الربيع العربي، خصوصاً من جانب الأطراف الإقليمية الضاجة بالربيع والمتوجسة منه، وتلك التي لم تكن ترى فيه الأداة التي سهل تطويعها، كما هو الحال بالنسبة لإيران، حتى بدا أن مزاعم غياب القائد تتحول إلى أخطر الأسلحة التي أُشهرت على ربيع اليمن كما على ربيع تونس ومصر وليبيا وسوريا، وذلك في مسعى يهدف إلى تكريس فكرة أن هذه الثورات على عظمة تضحياتها كانت مجرد فعل طائش من شباب غر لا يُقدر عواقب الأمور.

والحقيقة أن شجاعة الشباب كانت هي الفارق الأهم في المواجهة مع الأنظمة الدكتاتورية، إذ لم يكن هناك من هو أكثر شجاعة من الشباب، الذي وجه بوصلته بشكل مباشر نحو تغيير تلك الأنظمة، فما كان من الأحزاب إلا أن لاذت بهؤلاء الشباب، وألقت على كاهلهم مسؤولية إيقاد الثورة وتوجيه دفتها وتعيين أهدافها.

فعلت ذلك حتى تتجنب نقمة النظام الذي كان لديه من الأدوات ما يكفي لإسكات زعماء أحزاب المعارضة، واللعب على نقاط ضعفهم وهناتهم وزلاتهم، أو لنقل إن علي عبد الله صالح قدّر أن الأحزاب لن تغامر في استدعاء حقده ونزقه وجبروته وانعدام مسؤوليته تجاه المجتمع والدولة وهشاشتها.

جميع الحقوق محفوظة لموقع ايماسك - مركز الإمارات للدرسات والإعلام

كل الأطراف إذاً كانت تشير إلى الشباب وإلى حماس الشباب وإلى المطالب العادلة للشباب، لكن الحقيقة أن الثورة حينما صرخت بها حناجر الشباب؛ كانت قد تحولت إلى مطلب عام لكل مكونات المجتمع، مع الإقرار بوجود انقسام على المستويين الرأسي والأفقي، حول الثورة وأهدافها، تغذى من التضامن الجهوي والطائفي ومن المخاوف التي تولدت لدى المرتبطين بشبكة المصالح السياسية والاقتصادية التي نسجها صالح طيلة 33 سنة من حكمه البائس والفاشل.

لماذا إذاً لا نقر بأن شباب ثورة الحادي عشر من شباط/ فبراير 2011؛ أنتجوا قيادة تستحق الاحترام، وتليق بمن كانوا بالفعل هم وقود الثورة وأملها، دونما حاجة إلى أن نستمر في نسج تصورات ساذجة حول طبيعة هذه القيادة، ومواصلة الإصرار على وصم الشباب بأنهم كانوا مطية للأحزاب، على نحو يقلل من البطولات العظيمة التي سطروها، وإلى جانبهم أجيالٌ تعايشوا ضمن الظروف البائسة للعقود الخمسة من عمر الجمهورية الذي بدأ في السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1962، وهو تاريخ سقوط الإمامة الزيدية في اليمن

جميع الحقوق محفوظة لموقع ايماسك - مركز الإمارات للدرسات والإعلام